



د. بوالجديري فيصل
(جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة)
Email : fbouldjedri@gmail.com

الملخص

تتداخل العديد المفاهيم في العلوم الاجتماعية، حيث تكون الحدود بينها غامضة، وهو ما يشوش على الباحث أثناء ضبطه للإطار المفاهيمي، وأثناء قيامه بعملية الإسقاط الإمبريقي. ويرجع ذلك إلى أن أغلب تلك المفاهيم يكون مصدرها بيئات تختلف عن البيئة العربية. فإذا نقل المفهوم إلى العربية يصادف الباحث إشكالات دلالية عديدة. إن تخصص العلاقات الدولية لا يخلو من هذه الإشكالية، ذلك هو شأن مفهوم إستراتيجية الهيمنة الإقليمية، فهو على الرغم من كثرة استعماله في الكتابات العربية، إلا أننا قلما نجد له توطيفا خاليا من النقد.

قامت هذه الورقة بتحليل مفهومي Conceptualization لمصطلح الهيمنة الإقليمية - كمفهوم، وكإستراتيجية للقوى الإقليمية- وتفكيكه إلى أبعاده ومتغيراته ومؤشراته القابلة للملاحظة. أي الانتقال به من الطابع العام والمجرد إلى الطابع الملموس. وإذ تقوم بذلك فهي تبتغي تمكين المهتمين من الاستفادة العملية من قدرته التحليلية والتفسيرية في عالم توصف العديد من دوله بالمهيمن الإقليمي في ظل الانتشار الواسع للإقليمية في مواجهة العالمية.

الكلمات المفتاحية: الهيمنة الإقليمية، القوة الإقليمية، الإقليم، التحليل المفهومي

Abstract

Several concepts in social sciences are so linked to a degree that there are no borders between them. . This may make it difficult for the researcher in these branches to set his Conceptual framework . This is mainly due to the fact that most of that concepts originate from environments different from the Arab one. therefore, , the researcher will encounter several problems. The field of international relations is not excluded from this problematic such as the case of the concept regional hegemony which is, despite its multitude use in Arab's writings , we rarely find its use free from criticism. This paper has conceptualized the term Regional hegemony and dismantle it to its observable dimensions, variables and indicators, that is moving from general and abstract character to the concrete one. By doing it , it is sought to enable the interested people to benefit from its analytical and explanatory ability in a world where many countries are described as The regional dominant on the light of the wide spread of regionalism in facing globalization .

Keywords : regional hegemony, region, regional power, conceptualization, strategies of powers.

مقدمة :

يمكن لمصطلح القوة الإقليمية كمفهوم تحليلي أن يكون نقطة بداية وانطلاق في رسم وتشكيل خريطة البنية الداخلية للأقاليم وطبيعة التفاعلات الحاصلة فيها. وإذا كانت المحاولات الأولى للحيل الجديد من المتخصصين في الدراسات الإقليمية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة قد تركزت حول السعي لمفهمة "Conceptualization" وضبط ما أصبح يعرف بـ "القوة الإقليمية" كمفهوم يتجه جل معناه للتعبير عن الدولة أو الدول الرائدة في أقاليمها، فإنّ النقاش الثاني بين أولئك المتخصصين أنفسهم قد دار حول أيّ زوايا النظر الأساسية التي يجب أن تعتمد من أجل فهم التفاعلات الحاصلة على المستوى الإقليمي (Kardas : 2013, 648).

بمعنى أدق، هل يجب أن يتجه الاهتمام نحو الاكتفاء بالجانب البنوي القائم على القدرات (Ressources) أم صوب الجانب البنائي المرتكز على العلاقات بما فيها الأدوار والإستراتيجيات دون إغفال لبُعد القدرات؟

تقع هذه الورقة البحثية ضمن السياق العام للمنظور البنائي الذي يحاول تفسير التفاعلات الإقليمية وطبيعة العلاقات الهرمية (سياسات القوى الإقليمية) على المستوى الإقليمي للتحليل «Regional level of analyse».

كما تتجه هذه المساهمة البحثية مباشرة صوب " الهيمنة " « Hegemony » كمفهوم له خصائصه المتميزة المعبرة عن إستراتيجية تختلف عن باقي الإستراتيجيات والأدوار الممكنة الاتباع من طرف الفواعل الإقليمية من الدول التي تسعى لأن تكون قوى إقليمية، أو هي فعلا كذلك، ومعرّف بمكانتها.

الأنماط الممكنة لعلاقات القوة الإقليمية مع دول الجوار.

بشكل عام، توجد العديد من الطرق المختلفة التي يمكن للقوة الإقليمية أن ترتبط بواسطتها مع إقليمها. ولذلك اختلف الباحثون في وضع تصنيف دقيق ومتكامل لضبط طبيعة تفاعلات هذه القوى بجيرانها. فقد سادت فكرة - يعتبرها البعض خاطئة - مفادها أن القوى الإقليمية في كل أقاليم العالم، لا تتصّف ولا تتّبع إلا إستراتيجيات " خيرية " (Benevolent strategies) وأنها لا تمتلك إلا نوايا حسنة تجاه الإقليم ومكوناته، إلى درجة أن هؤلاء المنظرين افترضوا بأن تبني إستراتيجيات خيرية واندماجية (Integrative) هو شرط لازم لتبوء الدولة مكانة القوة الإقليمية. وهكذا تم استبعاد الأشكال الصلبة من الخيارات المتاحة أمام هذه القوى في علاقتها بالإقليم.

من بين الذين ينتمون لهذا المنظور يُذكر على سبيل المثال الباحثة " ماكسي شومان " المهتمة بالنظام الإقليمي لإفريقيا الجنوبية (52, 2003 : Schoeman)؛ وكذلك الباحث " ستيفان شيرم " ذي الاهتمامات البحثية بالنظام الإقليمي لأمريكا الجنوبية؛ إلى جانب الأستاذة في الجامعة المستقلة بمدريد " سوسان غراتيوس " (Susanne Gratius) الذي سارت في الطرح نفسه.

خلافًا لهؤلاء، جادل البعض الآخر من الباحثين الجدد بأنه ينبغي لنا أن نتصور مجموعة أوسع من الإستراتيجيات التي يمكن للقوى الإقليمية أن تتبعها في علاقاتها مع دول الجوار الإقليمي.

يعتبر " توماس بيدرسان " مثلاً من بين الباحثين السابقين للعمل في هذا الإطار، إذ افترض أن القوى الإقليمية الكبرى يمكن أن تتبع عدة إستراتيجيات مثل: " الهيمنة الانفرادية " (Unilateral hegemony)؛ " الهيمنة التعاونية " (cooperative)

hegemony)؛ " الإمبريالية" (Empire)؛ " التوافقية" (Concert). لكنه في الأخير فضل الهيمنة التعاونية (Nolte : 2010, 894) باعتبارها السبيل لتطوير المؤسسة الإقليمية. (Pedersen : 2002, 681, 682)

إذا رجعنا إلى مساهمة بيدرسان حول الهيمنة التعاونية التي أفرد لها مساحة واسعة في أبحاثه والتي حملت عنوان مقاله، نجد أنه يعرف هذا المفهوم " Cooperative Hegemony" بأنه شكل مرن للسيطرة بواسطة أدوات الترتيبات المؤسساتية التعاونية القائمة على إستراتيجية طويلة المدى.¹ ومن الشروط المسبقة لتحقيق أهداف الهيمنة التعاونية هي ضمان قدرة القوة الإقليمية على ما يلي:

- تجميع القوة Power aggregation ممثلة في القدرة على إقناع العدد الكافي من دول الحوار للالتفاف حول المشروع أو المشاريع الإقليمية التي تقترحها.
- تقاسم القوة Power sharing ويعني به اقتسام القوة مع الدول الصغيرة والضعيفة في الإقليم.
- القدرة على الارتباط باستراتيجية طويلة الأجل بغرض المؤسسة الإقليمية. (Ibid, 681, 682)

أما بالنسبة لـ: "مريام برايز" Miriam Prys، فإن نطاق الأنواع أو الأشكال الممكنة لتلك العلاقات يمكن مفهمتها « can be coceptualized » في شكل مستقيم بين حجري زاويتين. يبدأ من مفهوم " اللامبالي " Indifferent/ « negligent » وعبرت عنه بمصطلح الكسلان « Lazy »، وينتهي بمفهوم " الإمبريالي " Imperialistic » وعبرت عنه الباحثة بمصطلح الجشع « Greedy ». أما مفهوم الهيمنة « Hegemony » فجعلته في مكان ما في الوسط بين الإثنين، واعتبرته مفهوما مركزيا. (Prys : 2007, 3)

محاولة أخرى جاءت على يد كل من " فرازيي و ستيوارت أنجرسول " (Frazier and Stewart Ingersoll) عاجلا فيها مجموعة من الأدوار والتوجهات التي تتبناها القوى الإقليمية. (Frazier and Ingersoll : 2010, 54) وهو النهج نفسه الذي سار عليه " أندرو هيرال " Andrew Hurrell تقريبا، عند تطرقه للاستراتيجيات العنفية مدلا ذلك بالطريقة المنتهجة من طرف روسيا في الشيشان.

أما الفضل الكبير في توسيع مجال البحث في الإستراتيجيات ممكنة الاتباع من طرف القوى المتطلعة لمكانة القوة الإقليمية، فيعود إلى الباحثة بالمعهد الألماني للدراسات العالمية والمناطقية " ساندرا ديسترادي " (Sandra Destradi)، حيث تقول بأنه بإلقاء نظرة سطحية على السياسات الخارجية التي تتبناها بعض القوى الإقليمية يتضح جليا أن الفكرة الخيرية بمفردها، لا تتناسب مع الواقع الإمبريقي، أو أن الحالات التي تنطبق عليها نادرا ما تمثل قاعدة صلبة من أجل التعميم النظري بخصوص القوى الإقليمية.

وبذلك توصلت إلى وجود ثلاثة إستراتيجيات محتملة تتبعها القوى الإقليمية في المناطق المعنية بالنفوذ حداثتها وفق مستقيم (Continuum) يمتد من الإستراتيجيات أحادية الطرف التي تمتاز بالعنف والإكراه، والتي تسميها "الأمبريالية" (Empire)، لينتهي المستقيم بالإستراتيجيات التعاونية التي تهدف للوصول إلى غايات مشتركة لكل أعضاء النظام الإقليمي، وقد وصفتها بـ: "القيادة" (Leadership). أما في الوسط منهما فتوجد العديد من الإستراتيجيات الفرعية التي تنتمي إلى إستراتيجية "الهيمنة" (Hegemony). متعددة الأشكال والأبعاد (Destradi: 2010, 904).

يعتبر " ديرك نابرس " (Dirk Nabers) كذلك من الكتاب الذين اهتموا بالبدائل المتاحة أمام القوى الإقليمية، فقد ابتكر مفهوما جديدا يقر بأنه مستوحى

من منظور "أوران يونغ" حول القوة والقيادة، حيث استلهم مفهوم "الهيمنة الخطائية" Discursive Hegemony من مفهوم "القيادة الثقافية" (intellectual leadership) لصاحبه "أوران يونغ" كما ذكرنا، وذلك في تعبير منه عن الرؤية الاجتماعية للقوة، والتي تنطوي على السيطرة على التفكير وتبني حاجيات ورغبات الآخرين (3, 2008 : Nabers). وهذا الطرح الأخير ذاته مستوحى من طروحات "أنطونيو غرامشي" حول الهيمنة، الذي يأخذ اللغة على أنها مكونا للسياسة.

الهيمنة الإقليمية: مقارنة تعريفية:

وجب التنبيه إلى أن "الهيمنة" كمفهوم هو أداة تحليلية استخدمت في العلاقات الدولية للتعبير عن شكل متميز من العلاقة بين القوة العظمى و/ أو القوى الكبرى مع باقي الفواعل في النظام الدولي ذي الطبيعة الهرمية أو الفوضوية (Heirarchy or Anarchy)، ولكن الضرورة البحثية استدعت إمكانية استعارة المفهوم نفسه للتعبير عن التفاعلات الدولية الحاصلة على المستوى الإقليمي، وهو ما أصبح يعرف في أوساط الباحثين بـ: "أقلمة الهيمنة" (Regionalising the Hegemony).

في الواقع، يتكرر استعمال مفهوم الهيمنة في التحليلات المعاصرة للعلاقات الإقليمية، وهذا ما يجعل الحاجة ماسة للقيام بتحليل مفهومي جيد لما يعنيه بالضبط. ولكن غالبا ما تعترضنا صفة التعقيد الملازمة لهذا المفهوم العصي على الضبط، والمتنازع حوله. (909, 2010 : Destradi) وفي ذلك تحاجج "مريام برايز" بأنه بينما يتكرر استعمال فكرة "الهيمنة الإقليمية" لتحليل وتوصيف أدوار وسلوكات الدول، إلا أن الأدبيات فشلت بشكل كبير في تضمين الإقليم في سياق مفهوم الهيمنة. (5, 2008 : Prys) وهذا من أهم الأسباب والعوامل التي تجعل الدول التي توصف بأنها مهيمن إقليمي تتصرف خلافا لما هو متوقع منها.

إن الشيء المتفق عليه في إطار الدراسات الإقليمية هو أن مفهوم الهيمنة كان مقتصرًا على تحليل التفاعلات التي تحدث على المستوى التحليلي العالمي في إطار صراع الحرب الباردة وما بعدها بقليل. لكن الضرورة العلمية النظرية اقتضت أن يتم تكييف المفهوم لكي يتماشى مع تفاعلات المستوى التحليلي الإقليمي للاستفادة من قدرته التحليلية لقضايا القرن الحادي والعشرين.

إبستمولوجيا، هناك أسباب وجيهة للاحتفاظ بمفهوم "الهيمنة الإقليمية" ضمن مفرداتنا التحليلية للعلاقات الدولية العالمية أو الإقليمية، ومن بينها:

****** إن الهيمنة مفهوم مهم جدا في تاريخ العلاقات الدولية، فقبل أن يطاله التحريف بزعم البعض أنه لا ينقاد إلا لتوصيف الهيمنة الأمريكية، كان المفهوم متكرر الاستعمال لتفسير بعض أنواع العلاقات بين الدول الكبرى والدول الصغرى، وبالتالي فهو مفهوم عام يصلح لتفسير كل تفاعلات هرمية القوة سواء على المستوى العالمي أو الإقليمي أو حتى الوطني المجتمعي.

****** بما أن مفهوم "الهيمنة" شائع الاستعمال في التحليلات المعاصرة للعلاقات الإقليمية، فإننا لا يمكننا استبعاده بشرط استمرار محاولات الوصول إلى فهم أحسن لما يعنيه بالضبط.

****** الهيمنة مفهوم يسمح بتوصيف علاقة خاصة ضمن الأنظمة الهرمية أو التراتبية والتي لا يمكن تغطية كل جوانبها بواسطة مفاهيم أخرى، كمفهوم القائد الإقليمي regional Leader أو القوة الإقليمية العظمى Regional great power أو القوى الإقليمية الصاعدة Emerging regional power .

كانت النتيجة الأولية لذلك هي ظهور عدة محاولات لإعطاء دلالة ما لمفهوم الهيمنة الإقليمية، مثل تلك التي قدمها "دافيد مايرز" (David Myers) حين عرف

المفهوم - وفق المنظور الواقعي - على أنه الدولة التي تمتلك قوة كافية للسيطرة على الدول الثانوية في نظام إقليمي ما. (Myers : 1991, 3)

في الإطار الواقعي نفسه يفهم كل من " كولين إلمان وجون ميرشايمر " الهيمنة الإقليمية على أنها السيطرة على المنطقة أين تقع القوة الكبرى " وبحسب منظور الواقعية الهجومية، فإنه لا يوجد إلا مهيمن إقليمي واحد في العالم في الوقت ذاته. لكن بالمقابل يمكن أن نجادل بأن حصر دلالة مفهوم الهيمنة الإقليمية ضمن النطاق الضيق للواقعية سوف يوصل إلى فهم مبتور إذ أن للهيمنة العالمية و/ أو الإقليمية أبعادا أخرى غير بعد التفوق في القدرات.

وفي هذا تتوافق مع تأكيد " ستيفن لوكس " (Steven Lukes) بأن القوة - ومن ثم الهيمنة - تكون أكثر حسما في شكلها غير المرئي أكثر من الشكل الملاحظ . (Lukes : 2005, 86) ومعنى ذلك أن البعد الإدراكي في القوة، إضافة إلى البعد العلائقي واعتراف الآخرين هو القوة ذاتها.

تعتبر مساهمة " مريام برايز " رائدة في محاولة التوفيق بين مختلف التعريفات المعطاة لمفهوم الهيمنة الإقليمية المستوحاة من الهيمنة العالمية، وقد حصرت جل تلك التعريفات في نقطتين رئيسيتين هما: (Prys : 2008, 7, 8)

- أولا: غالبا ما ينظر إلى الهيمنة على أنها تدفق للتفوق النسبي في القوة المادية بالمصطلحات الاقتصادية والعسكرية على المستوى العالمي للسياسة الدولية، أو إقليميا في منطقة محددة جغرافيا من العالم.
- ثانيا: تفهم الهيمنة على أنها نظام سياسي أين يسيطر طريق واحد في التفكير - عادة هو الأقوى - مما يقلل من الإكراه.

أبعاد الهيمنة الإقليمية:

تعبّر المفاهيم العلمية عن الصفات المشتركة التي تشترك فيها الأشياء والوقائع والظواهر والحوادث، دون أن تعني واقعة أو حادثة بعينها، أو شيئاً بذاته. والمفهوم كذلك هو لفظ عام يعبر عن مجموعة متجانسة من الأشياء، وهو عبارة عن تجريد للواقع يسمح لنا بأن نعبر عن هذا الواقع من خلاله، كما أنها رموز نعبر بها عن أفكار أو ظواهر تجمعها خصائص مشتركة (شليبي: 2002، 35).

إذ أن المفهوم كأداة ذهنية تفسيرية وليست وصفية فقط، نتصور بها الواقع السياسي على صورة معينة، فحين يذكر هذا المفهوم يستدعي لدى المهتمين بالبحث العلمي مجموعة من علاقات وعناصر الواقع السياسي المستهدف (بدوي: د ت، 254، 255).

إلا أن المفاهيم - رغم ذلك- لن تكون لها فائدة علمية إذا لم تخضع لما يسمى عملياتية البحث أو إجرائيته Operationalisation، ويقصد بها عملية تفكيك المفهوم إلى أبعاد، والأبعاد إلى مؤشرات واقعية يمكن ملاحظتها وقياسها. وبالنسبة لمفهوم "الهيمنة الإقليمية"، يعود الفضل في هذا المجال إلى الباحثة " مريام برايز " أيضاً، التي صاغت إطاراً مفاهيمياً تفكيكياً يتكون من ثلاثة أبعاد رئيسية لمفهوم الهيمنة الإقليمية و/ أو العالمية. وهي ما يعرف في الكتابات الإقليمية المتخصصة باللغة الإنجليزية بـ:

(The Three p's) ويقصد بها:

- Perception " التصور أو الإدراك "
- Projection " الاستعراض أو الإسقاط "
- Provision " التوفير أو التموين "

ومنه خلصت إلى أن هذه الأبعاد الثلاثة مضاف إليها بعد القدرات " capabilities " هي معيار التفريق بين العلاقة الهيمنية hegemonic relation وباقي العلاقات الأخرى الممكنة بين الفواعل الإقليمية.

1/ التصور أو الإدراك " Perception " :

يتضمن بعد التصور أو الإدراك كلا من التصور الذاتي للمهيمن الإقليمي عن نفسه، وتصورات القوى الثانوية في الإقليم عن المهيمن. وفي هذا الإطار فإن أغلب التحليلات المفهومية للهيمنة تجعل من المسلّم به أن أي دولة تسعى لتكون مهيمنة، فهي تحتاج لامتلاك الإرادة السياسية والطموح لأن تصبح كذلك. قد تكون هذه الإرادة صريحة، بأن تنهض بعض الدول الرائدة في أقاليمها بمطلب الهيمنة في ظل الفراغ الحاصل في القوة الذي ميز فترة ما بعد نهاية الحرب الباردة، وإما أن يكون ضمناً في شكل إبداء استعداد وقدرة من طرف الدولة المعنية لتحمل أعباء الهيمنة.

2/ الاستعراض أو التكييف " Projection "

إن تلقين واستعراض القيم والمصالح بدلا من فرضها، هو مظهر محدد آخر للهيمنة الإقليمية. إن الاستعراض أو التلقين المذكور The projection مرتبط عموما بعملية " تنشئة " (Socialization) يقوم بها المهيمن. ويعتبر كل من " إكنبيري و كابشن " أفضل الذين كتبوا عن التنشئة وعلاقتها بالهيمنة. (Ikenberry and Kupchan : 1990, 289)

إن الهدف من التنشئة هو جعل القوى الثانوية في الإقليم تقبل بقيم ومعايير المهيمن على أساس أنها الشيء الصحيح الذي يجب أن يُفعل. وذلك بالرغم من أن التنشئة هي مسار طويل الأجل لا يتحقق إلا مع مرور الزمن.

3/ التوفير أو التموين " Provision "

يمكن تمييز الهيمنة - سواء كانت إقليمية أو عالمية - عن الأشكال الأخرى لعلاقات هرمية القوة (Hierarchical power relations) بواسطة خاصية توفير الحاجيات العامة من طرف واحد، أي من طرف المهيمن. إن الحاجيات والمنافع (Goods) التي يوفرها المهيمن الإقليمي تختلف حسب السياق، إذ أن الصفة التي تميزها هي عدم الحصر. وفي ذلك يمكن ذكر بعض الحاجيات، مثل إنشاء نظام للتجارة الحرة في الإقليم؛ أو العمل على توفير هوية إقليمية، وإرساء تضامن إقليمي حول قضايا معينة.

وهذا "سوران سكولفين" في مساهمته القيمة عن أدوار القوى الصاعدة يشدد على أنه بالنسبة لنظرية " الاستقرار بالهيمنة " تعتبر القوى الإقليمية فواعل أساسية في مجال تطوير الفوضى الدولية - وحتى الإقليمية - وتأسيس علاقات تعاونية ومستقرة مع أقاليمها. (scholvin : 2010, 3) وكل ذلك يدخل ضمن توفير المنافع العامة

للإقليم. إذ أن نظرية الإستقرار بالهيمنة (Hegemonic stability) كانت قد ربطت بين الإرادة السياسية من جهة والإنتاج شبه الآلي للمنافع العامة.

التعدد الدلالي لمفهوم الهيمنة الإقليمية:

تقول "ساندرا ديسترادي": "من أجل جعل مفهوم الهيمنة مناسباً للتحليل الإمبريقي، فإن مزيداً من التوصيف والتمييز بين الأشكال المختلفة للهيمنة يصبح أمراً ضرورياً، ومطلوباً بالخاص" (Destradi : 2010, 917). من خلال هذا الاقتباس يمكن أن نستنتج أن الهيمنة الإقليمية ليست هيمنة واحدة، بل هي هيمنات إقليمية متعددة. فهي رغم اتّحادها في اللفظ إلا أنّها تختلف المعنى والدلالة.

ذلك أن تحليلاً مختصراً وواسعاً قليلاً للنقاشات الأساسية حول الهيمنة يبرز مظهرين أو جانبين لهذا المفهوم: (Ibid, 917)

❖ الهيمنة بالأساس هي مصلحة ذاتية، وتهدف في المقام الأول إلى تحقيق أهداف المهيمن، الذي يَصوّر هذه الأهداف أمام الدول التابعة أو الثانوية على أنّها أهداف جماعية.

❖ الأطراف المهيمنة تشغل باستخدام مزيج من الحوافز المادية، ووسائل القوة الفكرية/ المعنوية (تغيير أو إعادة تشكيل المعايير والقيم لدى الدول الخاضعة للهيمنة) بهدف تحصيل التوافق حول المهيمن داخل تلك الدول.

لأجل ذلك فإن الهيمنة تقوم على توازن دقيق بين "الإكراه والطواعية". (Coercion and Consensus)، وبين الممارسة المباشرة وغير المباشرة للقوة من طرف الدولة المهيمنة من جهة، وتأمين درجة من احترام مصالح الدول الضعيفة من الجهة الأخرى. يخلص هذا النقاش النظري حول " الهيمنة " كمفهوم وكإستراتيجية إقليمية ممكنة التبنّي من طرف القوى الإقليمية، إلى أن الهيمنة يمكن أن تتضمن أشكالاً مختلفة

— قد تبدو لغير المتخصصين متناقضة— مثل الأحادية الطرف في مقابل التعاونية، أو الإكراهية في مقابل الخيرية. لكن اختلاف خصائص هذه الأنواع من الإستراتيجيات الهيمنية يعتمد على نوعية مصادر القوة المستخدمة في علاقة القوة الإقليمية مع جيرانها .

بهدف جعل هذا المفهوم " الهيمنة " ملائما للتحليل الإمبريقي، رأت " ديستراي " أن تميزا وتحديدًا أبعد وأعمق لأشكال الهيمنة يبقى أمرا ضروريا وملحاً. ولذلك افترضت الابتعاد أكثر عن مجرد التوقع حول التصنيفات الموجودة وعدم الاكتفاء بشائبة الخيرية/ الإكراهية. فقد وضعت تصنيفا فرعيا جديدا، اعتبرته بمثابة مقارنة تقسيمية أوسع للهيمنة مكوّن من: " الهيمنة الصلبة " و " الهيمنة المتوسطة " وأخيرا " الهيمنة المرنة " وذلك حسب معيار أدوات القوة المستخدمة (Ibid, 918). وستكتفي هذه الورقة بمناقشة الشكل الصلب والمرن منها فقط، وذلك باعتبار أن الهيمنة المتوسطة هي مزيج من النوعين، إلى درجة عدم إمكانية تمييزها عنهما أحيانا. إن هذا التفرع هو ما قد يزيد من القدرة التفسيرية للمفهوم، خاصة في حالة الدراسات المقارنة للسلوك الخارجي للدول التي تصنّف بأنها قوى إقليمية. ووفق هذا الإطار التصوري يتحتم على المهيمن (The Hegemon) أن يغيّر فعليا سياسات دول أخرى من أجل تلبية أهدافه الخاصة (Lake : 1993, 469).

أولاً: الهيمنة الصلبة" (Hard Hegemony):

ويمكن تصور هذا الشكل على أنه نظام للسيطرة يقوم على الإكراه والقسر (Coercion) إلا أنه يمارس بطريقة ذكية وأكثر مكرًا بمفهوم "أنطونيو غرامشي" (Destradi : 2010, 918). ويقع هذا النوع في نفس خانة " الهيمنة الانفرادية" (Unilateral hegemony) الذي وصفه " بيدرسان" بأنه يشمل عناصر أكثر واقعية وأقل اهتماماً بالمؤسسية (Pedersen : 2002, 682).

يعني ذلك أن الدولة المهيمنة تسعى أولاً، وبالأساس إلى تحقيق أهدافها الخاصة وتلبية مصالحها الشخصية، لكنها في المقابل تعمل على إيجاد طريقة لإخفاء هذا التطلع بالتركيز- في حدود معينة- على المصالح المشتركة مع الدول المجاورة لها في الإقليم ، والتي عادة تكون مستهدفة بالهيمنة. يترتب على هذا النوع من الهيمنة كذلك، أن تضطر بعض الدول الثانوية المجاورة - بحكم ضعفها مقارنة بالدولة المهيمنة- إلى مراجعة حساباتها والأخذ بعين الاعتبار عواقب عدم التماشي مع مطالب المهيمن، إلا أن ذلك التوافق الذي قد يحدث أحياناً، لا يعبر عن تغير حقيقي في توجهاتها المعيارية والقيمية.

ونظراً لعدم تبني الدول الثانوية لقيم ومعايير المهيمن - في هذه الحالة- فإن شرعية المهيمن تتحول إلى "شرعية زائفة" (Pseudo-legitimation) بحيث أن الدول الثانوية المستهدفة بالمشروع الهيمني قد تغير سلوكها، ولكن دون استيعاب القيم التي يروج لها المهيمن، فهي عادة ما تنتقد سياساته، بل وتقاوم أهدافه بأشكال مختلفة.

ثانيا: الهيمنة المرنة" (soft hegemony):

وهي إستراتيجية تشبه كثيرا " إستراتيجية القيادة". إلا أنّ مصالح المهيمن - على عكس إستراتيجية القيادة- تبقى في طليعة الأهداف المنشودة. تتميز هذه الإستراتيجية بالتركيز على تغيير التوجهات والممارسات السائدة لدى نخب دول الحوار، دون اللجوء إلى العقوبات والحوافز والتلاعب، ولكن بالانخراط في عملية تنشئة وإقناع إيديولوجي، تنتهي بالحصول على الشرعية بواسطة نفاذ قيم ومعايير المهيمن باتجاه النخب في القوى الثانوية المستهدفة بالمشروع.

كما أن عملية التنشئة المعقدة هذه، تؤدي إلى إعادة تعريف المصلحة الوطنية للدول الثانوية حسب النظام القيمي للمهيمن، ثم إلى السعي لتغيير سياساتها بما يتوافق ومبادئه ومعاييرها الخاصة. لقد حدد الثنائي " (Ikenberry & Kupchan) عدة أشكال للتواصل مع النخب في الدول المجاورة، مثل القنوات الدبلوماسية، والتبادل الثقافي والطلبة الأجانب (Ikenberry and Kupchan : 1990, 290).

وقد أطلق " إكنبيري" تسمية (الهيمنة المفتوحة) على هذا النوع من الإستراتيجيات محاولة منه لتلطيف المصطلح، وهي إستراتيجية أكثر تعاونية، وتحظى بالقبول من طرف الدول الثانوية المجاورة، حيث تكون قوة المهيمن مقيدة بالقواعد والمنظمات. وتشارك هذه الإستراتيجية مع مفهوم " الهيمنة التعاونية" الذي وضعه "بيدرسان"، والذي يتميزّ ز بالحكم المرن ودرجة عالية من المؤسساتية. (Pedersen : 2002, 683)

على عكس الهيمنة الصلبة، فإن انصياع الدول المجاورة، أو على الأقل، عدم معارضتها لهذه الإستراتيجية، لا ينبع من حسابات نفعية كما هو الحال في إستراتيجية الهيمنة الصلبة، بل - حسب ديسترادي - هو نتيجة للتوافق في القيم والمعايير بين الطرفين (Destradi : 2010, 920). لذلك تعد الهيمنة المرنة، الشكل الوحيد من إستراتيجية الهيمنة الذي يمكن أن يضيفي على القوة الإقليمية شرعية كاملة من طرف دول الجوار.

خاتمة:

يكتسي مفهوم "الهيمنة" كما تناولناه أعلاه، ميزة خاصة - مقارنة ببعض المفاهيم الأخرى- أكسبته قدرة تجميعية- كأداة تحليل تصنيفية- من جهة، واستيعاب تباينات سلوك القوى التي تتبع إستراتيجية الهيمنة من جهة أخرى. ففي إطار القدرة التجميعية، تبرز خاصية أسبقية تحقيق مصالح المهيمن وأهدافه كمظهر بارز من مظاهر سلوك الهيمنة الإقليمية.

ومع ذلك يبقى المفهوم - خاصة عند إسناده لمفهوم الإقليم- أكثر استعصاء على الفهم، وذلك راجع إلى:

- استعمال المفهوم غالبا كمرادف لكل من إستراتيجيات أخرى مثل "الإمبريالية" و "القيادة" على حد سواء.
- استعمال المفهوم من طرف كتاب ينتمون إلى مدارس فكرية مختلفة تماما، وبمصالح بحثية متعارضة جذريا في بعض الأحيان.
- تحميل المفهوم بالأبعاد المعيارية والقيمية.
- اتساع مجموعة السياسات الممكنة والاستراتيجيات التي قد تتبعها الدولة الواحدة التي تصنف بالمهيمنة. (Destradi: 2010, 917)

وفعلا، ليس من السهل على أي دولة أن تستمر في تبوأ مكانة المهيمن الإقليمي « regional hegemon ». فالهيمنة الإقليمية، وبالرغم من كل توتراتها المتأصلة على مستوى محور السياسة العالمي / الإقليمي، تبقى عبارة عن وضع أو مكانة position غير مستقرة ومعقدة بسبب كثرة حوافز التحول من وضعية المهيمن إلى إحدى الوضعيات المضادة التي تقع عند نهايتي مستقيم الإستراتيجيات التي تعبر عن علاقات الدولة المعنية مع الإقليم.

وسواء تعلق الأمر بالهيمنة المرنة أو الصلبة أو أي تنوعات داخل مفهوم الهيمنة، فإن الواقع يفرض علينا القول بأنه من أجل ضمان صمود وثبات دلالة الهيمنة الإقليمية، فإنه علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الأبعاد الأخرى له، ممثلة في ثنائية الخارج- داخل/ الداخل- خارج. وهو ما يمكن التعبير عنه بالقبول (Acceptance) متعدد المستويات، أي القبول في بعده الدولي الخارجي، وكذا الإقليمي الداخلي.

صحيح أن رسوخ الأقاليم في النظام الدولي يوفر فرصاً أمام الدول المهيمنة في الإقليم، فالفواعل الدولية كالمنظمات الدولية أو القوى الكبرى قد تقدم سنداً لصالح المهيمن الإقليمي، إلا أنها تضع قيوداً كبيرة أمام مكانتها في الوقت ذاته. والمثال البارز الذي يورد هنا هو التأثير الذي تحدثه القوى الكبرى من خارج الإقليم خاصة أنها تعمل أحياناً على دعم دول من داخل الإقليم - اقتصادياً وأحياناً عسكرياً- لمنافسة المهيمن الإقليمي واحتواءه وتهديد مكانته.

بالنسبة للبعد الآخر في المعادلة، فإن سعي المهيمن الإقليمي لاستغلال القضايا الإقليمية لأجل خدمة طموحها لمكانة عالمية قد يعرقل مكانتها الإقليمية، باصطدامها بمعارضات دولية قبل المعارضات والرفض الداخلي الإقليمي.

ختاماً، يبقى مفهوم الهيمنة الإقليمية، مفهوماً يعبر عن واقع ظرفي مؤقت قابل للتغير في أي لحظة، نظراً لكثرة الخصائص التي يحاول تجميعها ممثلة في تفاعلات علاقة هرمية داخل نظام إقليمي مفتوح وتابع لنظام عالمي أوسع، وأحياناً فوضوي. هذا بالإضافة إلى صعوبة التعميم التي تواجه المنظرين عند محاولة نقل المفهوم من نظام إقليمي إلى آخر.

قائمة المراجع

- ¹ - شليبي، محمد (2002)، *المنهجية في التحليل السياسي*، الجزائر: دار هومة.
- 2- بدوي، محمد طه (د ت) *النظرية السياسية*، الإسكندرية: المكتب المصري الحديث.
- 3- Destradi, Sandra (2010). Regional powers and their strategies: Empire, hegemony and leadership, **review of international studies**, 36, pp. 903-930.
- 4- Frazier Derrick and Stewart-Ingersoll Robert, (2010). Regional Powers and Security: A Framework for Understanding Order within Regional Security Complexes', **European Journal of International Relations**, Online.
- 5- Ikenberry G. John and Kupchan A. Charles (1990). Socialization and Hegemonic Power," **International Organization**, 44. pp. 283-315.
- Kardas, Saban, (2013). Turkey : a regional power facing a changing international system, **Turkish studies**, 14, pp. 637-660.
- 6- Lake A, David (1993). Leadership, Hegemony, and the International economy : Naked emperor or Tattered Monarch with potential?, **International studies quarterly**, vol. 37, pp. 459-489.
- 7- Lukes, Steven (2005). **Power: A Radical View**. Basingstoke: Macmillan Education.
- 8- Myers David J (1991). **Regional Hegemons: Threat Perception and Strategic Response** , Boulder: Westview.
- 9- Nabers, Dirk (2008). Leadership and Discursive Hegemony in International Politics, Paper prepared for the first **Regional Powers Network** (RPN) conference at the German Institute of Global and Area Studies (GIGA) in Hamburg, Germany, 15-16 September. 2008.
- 10- Nolte, Detlef (2010). How to compare regional powers : analytical concepts and research topics, **Review of International studies**, vol.36, pp. 881-901.
- 11- Pedersen, Thomas (2002). Cooperative Hegemony: Power, Ideas and Institutions in Regional Integration, **Review of International Studies**, 28, pp. 677-696.
- 12- Prys, Miriam (may 2007) *What Makes a Regional Hegemon?*, Paper presented at **ECPR Joint Session of Workshops**, Helsinki.

- 13- (2008). Developing a Contextually Relevant Concept of Regional Hegemony: The Case of South Africa, Zimbabwe and Quiet Diplomacy Hamburg: **GIGA working papers**, n 77.
- 14- Schoeman, Maxi (2003) South Africa as an Emerging Middle Power: 1994–2003’, in John Daniel, et al. (eds), **State of the Nation: South Africa 2003–2004** (Cape Town: HSRC Press, pp. 349-367.
- 15- Scholvin, Soren (April 2010). Emerging Non-OECD countries : global shift of power and geopolitical regionalization, **GIGA working papers**, No.128. on line.